

تفسير ابن كثير

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان E من جملتهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيله وبيانه قريبا وبه الثقة .

قال الإمام أحمد C : حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الرحمن بن وعلة قال : سمعت ابن عباس يقول : [إن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ : ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمدحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير وأما الشامية : فلخم وجذام وعاملة وغسان] ورواه عبد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة به وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر - في كتاب القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم - من حديث ابن لهيعة عن علقمة بن وعلة عن ابن عباس Bهما فذكر نحوه وقد روي نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام أحمد أيضا و عبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أبو جناب يحيى بن أبي حية الكلبي عن يحيى بن هانئ بن عروة بن فروة بن مسيك رضي الله عنه قال : [أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أقاتل بمقبل قومي مدبرهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم فقاتل بمقبل قومك مدبرهم فلما وليت دعاني فقال : لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام فقلت : يا رسول الله أ رأيت سبأ واد هو أو جبل أو ما هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا بل هو رجل من العرب ولد له عشرة فتيامن ستة وتشاءم أربعة تيامن الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومدحج وأنمار الذين يقال لهم بجيلة وختعم وتشاءم لخم وجذام وعاملة وغسان] وهذا أيضا إسناد حسن وإن كان فيه أبو جناب الكلبي وقد تكلموا فيه لكن رواه ابن جرير عن أبي كريب عن العنقري عن أسباط بن نصر عن يحيى بن هانئ المرادي عن عمه أو عن أبيه - شك - أسباط - قال : قدم فروة بن مسيك B على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره .

(طريق أخرى) لهذا الحديث قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن توبة بن نمر عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبدة بن عبد الرحمن بأفريقية فقال يوما : ما أظن قوما بأرض إلا وهم من أهلها فقال علي بن أبي

رباح : [كلا قد حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطيفي هـ قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن سباً قوم كان لهم عز في الجاهلية وإنني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ما أمرت فيهم بشيء بعد] فأنزلت هذه الآية { لقد كان لسباً في مسكنهم آية } الآيات فقال له رجل : [يا رسول الله ما سباً ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن سباً ما هو : أبلد أم رجل أم امرأة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بل رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام أربعة أما اليمانيون فمدحج وكندة والأزد الأشعريون وأنمار وحمير غير ما حلها وأما الشام فلخم وجذام وغسان وعاملة] فيه غرابة من حيث ذكر نزول الآية بالمدينة والسورة مكية كلها والله سبحانه وتعالى أعلم .

(طريق أخرى) قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة حدثنا الحسن بن الحكم حدثنا أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك الغطيفي هـ قال : [قال رجل : يا رسول الله أخبرني عن سباً ما هو : أرض أم امرأة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد له عشرة من الولد فتيامن ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان وأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومدحج وحمير وأنمار فقال رجل : ما أنمار ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الذين منهم خثعم وبجيلة] ورواه الترمذي في جامعه عن أبي كريب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة فذكره أبسط من هذا ثم قال : هذا حديث حسن غريب .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا أحمد بن زهير حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا ابن كثير هو عثمان بن كثير عن الليث بن سعد عن موسى بن علي بن يزيد بن حصين عن تميم الداري هـ قال : [إن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن سباً فذكر مثله] فقوي هذا الحديث وحسن قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق : اسم سباً عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وإنما سمي سباً لأنه أول من سباً في العرب وكان يقال له الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمي الرائش والعرب تسمى المال ريشا ورياشا وذكروا أنه بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعرا : .

- (سيملك بعدنا ملكا عظيما ... نبي لا يرخص في الحرام) .
- (ويملك بعده منهم ملوك ... يدينوه العباد بغير ذام) .
- (ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام) .
- (ويملك بعد قحطان نبي ... تقى مخبت خير الأنام) .
- (يسمى أحمدا ياليت أني ... أعمر بعد مبعثه بعام) .

(فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مدجج وبكل رام) .

(متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامي) .

ذكر ذلك الهمداني في كتاب - الإكليل - واختلفوا في فحطان على ثلاثة أقوال (أحدها) أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاثة طرائق (والثاني) أنه من سلالة عابر وهو هود E واختلفوا أيضا في كيفية نسبه به على ثلاثة طرائق أيضا (

والثالث) أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام واختلفوا في كيفية اتصال نسبه على ثلاث طرائق أيضا وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري رحمة الله تعالى عليه في كتابه المسمى الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة .

ومعنى قوله A : [كان رجلا من العرب] يعني العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل E من سلالة سام بن نوح وعلى القول الثالث كان من سلالة الخليل عليه السلام وليس هذا المشهور

عندهم وإنما أعلم ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال : [

ارموا بني إسماعيل ؟ فإن أباكم كان راميا] فأسلم قبيلة من الأنصار - والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ - نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث

الله صلى الله عليه وسلم عليهم سيل العرم ونزلت طائفة منهم بالشام وإنما قيل باليمن وقيل لهم غسان بماء نزلوا عليه قيل إنه قريب من المشلل كما قال حسان بن ثابت B : .

(إما سألت فإننا معشر نجب ... الأزدي نسبنا والماء غسان) .

ومعنى قوله A : [ولد له عشرة من العرب] أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه بل منهم من بينه وبينه الأبووان

والثلاثة والأقل والأكثر كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب ومعنى قوله A : [

فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة] أي بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من

أقام ببلادهم ومنهم من نزح عنها إلى غيرها وكان من أمر السد أنه كان الماء يأيتهم من

بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقدم فبنوا بينهما

سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء وحكم على حافات زينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا

الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن

المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مکتل أو زنبيل وهو الذي تخترف فيه الثمار

فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرتة ونضجه

واستوائه وكان هذا السد بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف بسد مأرب وذكر

آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام وذلك

لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى : {

لقد كان لسبأ في مسكنهم آية } ثم فسرها بقوله D : { جنتان عن يمين وشمال } أي من

ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك { كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور }
أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .
وقوله تعالى : { فأعرضوا } أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم وعدلوا
إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان E { وجئتك من سبأ نبيا يقين * إني
وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من
دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون } وقال محمد بن إسحاق
عن وهب بن منبه : بعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبيا وقال السدي : أرسل الله D إليهم اثني
عشر ألف نبي والله أعلم .

وقوله تعالى : { فأرسلنا عليهم سيل العرم } المراد بالعرم المياه وقيل الوادي وقيل
الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز
حكى ذلك السهيلي وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك : إن الله D
لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ نقبته
قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا
يرصدون عنده السنابير برهة من الزمن فلما جاء القدر غلبت الفأر السنابير وولجت إلى
السد فنقبته فانهار عليهم وقال قتادة وغيره : الجرذ هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف
ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما
بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونصب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين
وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال الله تبارك وتعالى
: { وبدلناهم بجناتهم جنتين ذواتي أكل خمط } قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء
الخراساني والحسن وقتادة والسدي : وهو الأراك وأكلة البربر { وأثل } قال العوفي عن ابن
عباس : هو الطرفاء وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم .

وقوله : { وشيء من سدر قليل } لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال : {
وشيء من سدر قليل } فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر
الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك
الكثير والتمر القليل وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى
الباطل ولهذا قال تعالى : { ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور } أي عاقبناهم
بكفرهم قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور وقال الحسن البصري : صدق الله العظيم لا يعاقب
بمثل فعله إلا الكفور وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن
الحسين حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو البيداء عن هشام
بن صالح التغلبي عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي B قال : جزاء المعصية الوهن في

العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللذة قيل : وما التعسر في اللذة ؟ قال : لا
يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها